شِرْب معلوم ، ومقام لا يتعداه ولا يتخطاه ، والله الموفق والمعين .

المشهد السادس : مشهد التوحيد :

وهو أن يشهد انفراد الرب تبارك وتعالى بالخلق والحكم ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لا تتحرك ذرة إلا بإذنه ، وأن الخلق مقهورون تحت قبضته ، وأنه ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابعه إن شاء أن يقيمه أقامه ، وإن شاء أن يزيغه أزاغه ، فالقلوب بيده ، وهو مقلبها ومصرفها كيف شاء وكيف أراد ، وأنه هو الذي آتى نفوس المؤمنين تقواها ، وهو الذي هداها وزكاها ، وألهم نفوس الفجار فجورها وأشقاها :

﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ (١) يهدي من يشاء بفضله ورحمته ، ويضل من يشاء بعدله وحكمته، هذا فضله وعطاؤه ، وما فضل الكريم بممنون ، وهذا عدله وقضاؤه :

﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ (٢) .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : « الإيمان بالقدر نظام التوحيد ، فمن كذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده ، ومن آمن بالقدر صدق إيمانه توحيده » .

في هذا المشهد : يتحقق للعبد مقام ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ علماً وحالاً ، فيثبت قدم العبد في توحيد الربوبية ، ثم يرقى منه صاعداً إلى توحيد الإلهية ، فإنه إذا تيقن أن الضر والنفع ، والعطاء والمنع ، والهدى والضلال ، والسعادة والشقاء : كل ذلك بيد الله لا بيد غيره ، وأنه الذي يقلب القلوب ، ويصرفها كيف يشاء ، وأنه

---

(١) سورة الأعراف الآية: /١٧٨/ .

(٢) سورة الأنبياء الآية: /٢٣/ .

لا موفق إلا من وفقه وأعانه ، ولا مخذول إلا من خذله وأهانه وتخلى عنه ، وأن أصح القلوب وأسلمها وأقومها وأرقها وأصفاها وأشدها وألينها : من اتخذه وحده إلهاً ومعبوداً ، فكان أحب إليه من كل ما سواه ، وأخوف عنده من كل ما سواه، وأرجى له من كل ما سواه، فتتقدم محبته في قلبه جميع المحاب ، فتنساق المحابُّ تبعاً لها كما ينساق الجيش تبعاً للسلطان ، ويتقدم خوفه في قلبه جميع المخوفات، فتنساق المخاوف كلها تبعاً لخوفه ، ويتقدم رجاؤه في قلبه جميع الرجاء ، فينساق كل رجاء تبعاً لرجائه .

فهذا علامة توحيد الإلهية في هذا القلب ، والباب الذي دخل إليه منه توحيد الربوبية ، أي باب توحيد الإلهية : هو توحيد الربوبية ، فإن أول ما يتعلق القلب يتعلق بتوحيد الربوبية ، ثم يرتقي إلى توحيد الإلهية ، كما يدعو الله سبحانه عباده في كتابه بهذا النوع من التوحيد إلى النوع الآخر ، ويحتج عليهم به ، ويقررهم به ، ثم يخبر أنهم ينقضونه بشركهم به في الإلهية .

وفي هذا المشهد يتحقق له مقام﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[1] أي فأين يصرفون عن شهادة أن لا إله إلا الله ، وعن عبادته وحده وهم يشهدون : أنه لا رب غيره ولا خالق سواه ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[2] فتعلمون أنه إذا كان هو وحده مالك الأرض ومن فيها ، وخالقهم ، وربهم ، ومليكهم ، فهو وحده إلههم ومعبودهم ، فكما لا رب لهم غيره ، فهكذا لا إله لهم سواه : ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝٨٦ سَيَقُولُونَ

---

(١) سورة الزخرف الآية / ٨٧/ .
(٢) سورة المؤمنون الآيتان / ٨٤ ـ ٨٥/ .

لِلَّهِۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾[١] وهكذا قوله في سورة النمل : ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ إلى آخر الآيات [٢] يحتج عليهم بأن من فعل لهم هذا وحده ، فهو الإله لهم وحده ، فإن كان معه رب فعل هذا فينبغي أن تعبدوه ، وإن لم يكن معه رب فعل هذا ، فكيف تجعلون معه إلهاً آخر؟ .

ولهذا كان الصحيح من القولين في تقديره الآية « أإله مع الله فعل هذا؟ » حتى يتم الدليل ، فلا بد من الجواب بلا ، فإذا لم يكن معه إله فعل كفعله فكيف تعبدون آلهة أخرى سواه؟ فعلم أن إلهية ما سواه باطلة ، كما أن ربوبية ما سواه باطلة بإقراركم وشهادتكم .

ومن قال المعنى « هل مع الله إله آخر » من غير أن يكون المعنى « فعل هذا » فقوله ضعيف لوجهين :

أحدهما : أنهم كانوا يقولون : مع الله آلهة أخرى ، ولا ينكرون ذلك .

الثاني : أنه لا يتم الدليل ، ولا يحصل إفحامهم وإقامة الحجة عليهم إلا بهذا التقدير ، أي : فإذا كنتم تقولون : إنه ليس معه إله آخر فعل مثل فعله ، فكيف تجعلون معه إلهاً آخر لا يخلق شيئاً وهو عاجز؟ وهذا كقوله : ﴿ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ [٣] وقوله : ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن

---

(١) سورة المؤمنون : الآيات : / ٨٦ ـ ٨٨/ .
(٢) سورة النمل : الآيتان : /٥٩ ـ ٦٠/ .
(٣) سورة الرعد : الآية /١٦/ .

دُونِهِۦٓ ﴾ [١] وقوله : ﴿ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ ﴾ [٢] وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴾ [٣] وقوله : ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴾ [٤] وهو كثير في القرآن ، وبه تتم الحجة كما تبين .

والمقصود : أن العبد يحصل له هذا في المشهد من مطالعة الجنايات والذنوب ، وجريانها عليه وعلى الخليفة بتقدير العزيز الحكيم ، وأنه لا عاصم من غضبه وأسباب سخطه إلا هو ، ولا سبيل إلى طاعته إلا بمعونته ، ولا وصول إلى مرضاته إلا بتوفيقه ، فموارد الأمور كلها منه ، ومصادرها إليه وأزمة التوفيق جميعها بيديه ، فلا مستعان للعباد إلا به ، ولا متكل إلا عليه . كما قال شعيب خطيب الأنبياء : ﴿ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾ [٥].

المشهد السابع : مشهد التوفيق والخذلان :

وهو من تمام هذا المشهد وفروعه ، ولكن أفرد بالذكر لحاجة العبد إلى شهوده وانتفاعه به ، وقد أجمع العارفون بالله : أن «التوفيق»هو أن لا يكلك الله إلى نفسك ، وأن «الخذلان» هو أن يخلي بينك وبين نفسك، فالعبيد متقلبون بين توفيقه وخذلانه ، بل العبد في الساعة الواحدة ينال نصيبه من هذا وهذا ، فيطيعه ويرضيه ، ويذكره ويشكره بتوفيقه له، ثم يعصيه ويخالفه ويسخطه ويغفل عنه بخذلانه له، فهو دائر بين توفيقه وخذلانه، فإن وفقه فبفضله ورحمته ، وإن خذله فبعدله وحكمته ، وهو

---

(١) سورة لقمان : الآية /١١/ .
(٢) سورة النحل : الآية /١٧/ .
(٣) سورة النحل : الآية /٢٠/ .
(٤) سورة الفرقان : الآية /٣/ .
(٥) سورة هود: الآية /٨٨/ .

المحمود على هذا وهذا ، له أتم حمد وأكمله ، ولم يمنع العبد شيئاً هو له ، وإنما منعه ما هو مجرد فضله وعطائه ، وهو أعلم حيث يضعه وأين يجعله ، فمتى شهد العبد المشهد وأعطاه حقه ، علم شدة ضرورته وحاجته إلى التوفيق في كل نفس وكل لحظة وطرفة عين ، وأن إيمانه وتوحيده بيده تعالى ، لو تخلى عنه طرفة عين لثُلَّ عرش توحيده ، ولخرت سماء إيمانه على الأرض ، وأن الممسك له : هو من يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه فهِجِّيرى قلبه (١) ، ودأب لسانه « يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ، يامصرف القلوب صرّف قلبي إلى طاعتك » (٢) ودعواه « ياحي ياقيوم ، يابديع السموات والأرض ياذا الجلال والإكرام ، لا إله إلا أنت ، برحمتك أستغيث ، أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين ، ولا إلى أحد من خلقك » (٣) .

---

(١) هجيرى الإنسان ـ بكسر الهاء وتشديد الجيم المكسورة بالقصر ـ: دأبه الذي يلازمه ولا يتركه ، ويسميها الناس في بعض البلاد في هذا العصر « لازمة » فالذي يكثر في كلامه من كلمة « مثلاً » أو مفهوم يقولون : لازمته « مثلاً » أو « مفهوم » .

(٢) رواه مسلم (٢٦٥٤) في القدر ، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء ، والترمذي (٢١٤١) في القدر باب ما جاء أن القلوب بين إصبعي الرحمن ، وأحمد في المسند(٦/ ٢٥٠) و(٦/ ٣٠٢) وابن ماجه (١٩٩) في المقدمة، والبغوي في شرح السنة (٨٨) و(٨٩) في الإيمان ، باب قول الله سبحانه وتعالى ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ، وابن السني في اليوم والليلة (٦٦٣) ، والحاكم في المستدرك (١/ ٥٢٦) .

(٣) لم نجد الحديث بلفظه ، إنما وجدناه أجزاء مفردة منها قوله ﷺ : « يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث » وقوله : « اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين » وقوله : « يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث ، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين ، وأصلح لي شأني كله » .

ففي هذا المشهد توفيق الله وخذلانه ، كما يشهد ربوبيته وخلقه ، فيسأله توفيقه مسألة المضطر ، ويعوذ به من خذلانه عياذ الملهوف ، ويلقي نفسه بين يديه ، طريحاً ببابه مستسلماً له ، ناكس الرأس بين يديه ، خاضعاً ذليلاً مستكيناً ، لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، و« التوفيق » إرادة الله من نفسه أن يفعل بعبده ما يصلح به العبد ، بأن يجعله قادراً على فعل ما يرضيه ، مريداً له ، محباً له ، مؤثراً له على غيره ، ويبغض إليه ما يسخطه، ويُكرِّهه إليه ، وهذا مجرد فعله ، والعبد محل له ، قال تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ (١) .

فهو سبحانه عليم بمن يصلح لهذا الفضل ومن لا يصلح له ، حكيم يضعه في مواضعه وعند أهله ، لا يمنعه أهله ، ولا يضعه عند غير أهله ، وذكر هذا عقيب قوله :

﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ ﴾ (٢) .

ثم جاء به بحرف الاستدراك فقال :

﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ ﴾ .

يقول سبحانه : لم تكن محبتكم للإيمان وإرادتكم له ، وتزيينه في قلوبكم منكم ، ولكن الله هو الذي جعله كذلك ، فآثرتموه ورضيتموه ، فلذلك لا تقدموا بين يدي رسولي ، ولا تقولوا حتى يقول ، ولا تفعلوا حتى يأمر ، فالذي حبب إليكم الإيمان أعلم بمصالح عباده منكم ، وأنتم فلولا توفيقه لكم لما أذعنت نفوسكم للإيمان ، فلم يكن الإيمان

---

(١) سورة الحجرات : الآية (٧ ـ ٨) .
(٢) سورة الحجرات : الآية /٧/ .

بمشورتكم وتوفيق أنفسكم ، ولا تقدمتم به إليها ، فنفوسكم تقصر وتعجز عن ذلك ولا تبلغه ، فلو أطاعكم رسولي في كثير مما تريدون لشق عليكم ذلك ولهلكتم وفسدت مصالحكم وأنتم لا تشعرون ، ولا تظنوا أن نفوسكم تريد لكم الرشد والصلاح ، كما أردتم الإيمان ، فلولا أني حببته إليكم وزينته في قلوبكم ، وكرهت إليكم ضده لما وقع منكم ، ولا سمحت به أنفسكم ، وقد ضرب للتوفيق والخذلان مثل : ملك أرسل إلى أهل بلد من بلاده رسولاً وكتب معه إليهم كتاباً يعلمهم أن العدو مصبّحهم عن قريب ويجتاحهم ، ومخرّب البلد ، ومهلك من فيها ، وأرسل إليهم أموالاً ومراكب وزاداً وعُدة وأدلة ، وقال : ارتحلوا مع هؤلاء الأدلة ، وقد أرسلت إليكم جميع ما تحتاجون إليه ، ثم قال لجماعة من مماليكه : اذهبوا إلى فلان ، فخذوا بيده واحملوه ولا تذروه يقعد ، واذهبوا إلى فلان كذلك وإلى فلان ، وذروا من عداهم ، فإنهم لا يصلحون أن يساكنوني في بلدي ، فذهب خواص مماليكه إلى من أمروا بحملهم ، فلم يتركوهم يقرون ، بل حملوهم حملاً ، وساقوهم سوقاً إلى الملك ، فاجتاح العدو من بقي في المدينة وقتلهم ، وأسر من أسر .

فهل يعد الملك ظالماً لهؤلاء ، أم عادلاً فيهم؟ نعم خص أولئك بإحسانه وعنايته وحرمها من عداهم ، إذ لا يجب عليه التسوية بينهم في فضله وإكرامه بل ذلك فضله يؤتيه من يشاء (١) .

وقد فسرت القدرية الجبرية « التوفيق » بأنه خلق الطاعة ، و« الخذلان » بأنه خلق المعصية .

ولكن بنوا ذلك على أصولهم الفاسدة من إنكار الأسباب والحكم ، وردوا الأمر إلى محض المشيئة من غير سبب ولا حكمة .

---

(١) سبحان الله أن تضرب له الأمثال ، فإن الله يعلم وهم لا يعلمون ، وهو رب العالمين الرحمن الرحيم ، يربيهم جميعاً بنعمه وإحسانه .

وقابلهم القدرية النفاة ، ففسروا « التوفيق » بالبيان العام ، والهدى العام ، والتمكن من الطاعة والإقبال عليها ، وتهيئة أسبابها ، وهذا حاصل لكل كافر ومشرك بلغته الحجة ، وتمكن من الإيمان .

فالتوفيق عندهم : أمر مشترك بين الكفار والمؤمنين ، إذ الإقدار والتمكين والدلالة والبيان قد عم به الفريقين ، ولم يفرد المؤمنين عندهم بتوفيق وقع به الإيمان منهم ، والكفار بخذلان امتنع به الإيمان منهم ، ولو فعل ذلك لكان عندهم محاباة وظلماً .

والتزموا لهذا الأصل لوازم ، قامت بها عليهم سوق الشناعة بين العقلاء ولم يجدوا بداً من التزامها ، فظهر فساد مذهبهم ، وتناقض قولهم ، لمن أحاط به علماً ، وتصوره حق تصوره ، وعُلم أنه أبطل مذهب في العالم وأردؤه ، وهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، فلم يرضوا بطريق هؤلاء ، ولا بطريق هؤلاء ، وشهدوا انحراف الطريقين عن الصراط المستقيم ، فأثبتوا القضاء والقدر ، وعموم مشيئة الله للكائنات ، وأثبتوا الأسباب والحكم ، والغايات والمصالح ، ونزهوا الله عز وجل أن يكون في ملكه ما لا يشاء ، أو أن يقدر خلقه على ما لا يدخل تحت قدرته ولا مشيئته ،أو أن يكون شيء من أفعالهم واقعاً بغير اختياره وبدون مشيئته، ومن قال ذلك فلم يعرف ربه ولم يثبت له كمال الربوبية ونزهوه ـ مع ذلك ـ عن العبث وفعل القبيح ، وأن يخلق شيئاً سدىً ، وأن تخلو أفعاله عن حكم بالغة ، لأجلها أوجدها ، وأسباب بها سببها ، وغايات جعلت طرقاً ووسائل إليها ، وأن له في كل ما خلقه وقضاه حكمة بالغة ، وتلك الحكمة صفة له قائمة به ، ليست مخلوقة كما تقول القدرية النفاة للقدر والحكمة في الحقيقة .

فأهل الصراط المستقيم : بريئون من الطائفتين ، إلا من حق تتضمنه

مقالاتهم فإنهم يوافقونهم عليه ، ويجمعون حق كل منهما إلى حق الأخرى ، ولا يبطلون ما معهم من الحق لما قالوه من الباطل ، فهم شهداء الله على الطوائف ، وأمناؤه عليهم ، حكام بينهم ، حاكمون عليهم ، ولا يحكم عليهم أحد منهم ، يكشفون أحوال الطوائف ، ولا يكشفهم إلا من كشف له عن معرفة ما جاء به الرسول ﷺ وعرف الفرق بينه وبين غيره ، ولم يلتبس عليه ، وهؤلاء أفراد العالم ونخبته وخلاصته ، ليسوا من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ولا من الذين تقطعوا أمرهم بينهم زُبراً ، بل ممن هم على بينة من ربه وبصيرة في إيمانه ، ومعرفة بما عند الناس ، والله الموفق .

المشهد الثامن : مشهد الأسماء والصفات :

وهو من أجلّ المشاهد ، وهو أعلى مما قبله وأوسع .

والمطلع على هذا المشهد معرفة تعلق الوجود خلقاً وأمراً بالأسماء الحسنى والصفات العلى ، وارتباطه بها ، وإن كان العالم ـ بما فيه ـ من بعض آثارها ومقتضياتها .

وهذا من أجلّ المعارف وأشرفها ، وكل اسم من أسمائه سبحانه له صفة خاصة ، فإن أسماءه أوصاف مدح وكمال ، وكل صفة لها مقتض وفعل : إما لازم ، وإما متعد ، ولذلك الفعل تعلق بمفعول هو من لوازمه ، وهذا في خلقه وأمره ، وثوابه وعقابه ، كل ذلك آثار الأسماء الحسنى وموجباتها .

ومن المحال تعطيل أسمائه عن أوصافها ومعانيها ، وتعطيل الأوصاف عما تقتضيه وتستدعيه من الأفعال عن المفعولات ، كما أنه يستحيل تعطيل مفعوله عن أفعاله، وأفعاله عن صفاته ، وصفاته عن أسمائه ، وتعطيل أسمائه وأوصافه عن ذاته .

وإذا كانت أوصافه صفات كمال ، وأفعاله حكماً ومصالح ، وأسماؤه

حسنى : ففرض تعطيلها عن موجباتها مستحيل في حقه ، ولهذا ينكر سبحانه على من عطله عن أمره ونهيه ، وثوابه وعقابه ، وأنه بذلك نسبه إلى مالا يليق به وإلى ما يتنزه عنه وأن ذلك حكم سيىء ممن حكم به عليه ، وأن من نسبه إلى ذلك فما قدره حق قدره ، ولا عظمه حق تعظيمه، كما قال في حق منكري النبوة، وإرسال الرسل ، وإنزال الكتب :

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ﴾ (١).

وقال تعالى في حق منكري المعاد والثواب والعقاب :

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ (٢).

وقال في حق من جوز عليه التسوية بين المختلفين ، كالأبرار والفجار ، والمؤمنين والكفار :

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (٣).

فأخبر أن هذا حكم سيىء لا يليق به ، تأباه أسماؤه وصفاته ، وقال سبحانه : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ (٤).

عن هذا الظن والحسبان ، الذي تأباه أسماؤه وصفاته، ونظائر هذا في القرآن كثيرة ، ينفي فيها عن نفسه خلاف موجب أسمائه وصفاته ، إذ ذلك

---

(١) سورة الأنعام : الآية / ٩١/ .

(٢) سورة الزمر : الآية / ٦٧/ .

(٣) سورة الجاثية : الآية / ٢١/ .

(٤) سورة المؤمنون : الآية / ١١٥ ـ ١١٦/ .

مستلزم تعطيلها عن كمالها ومقتضياتها ، فاسمه « الحميد ، المجيد » يمنع ترك الإنسان سدىً مهملاً معطلاً ، لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يثاب ولا يعاقب . وكذلك اسمه « الحكيم » يأبى ذلك ، وكذلك اسمه « الملك » واسمه « الحي » يمنع أن يكون معطلاً من الفعل ، بل حقيقة « الحياة » الفعل ، فكل حي فعّال ، وكونه سبحانه « خالقاً قيوماً » من موجبات حياته ومقتضياتها ، اسمه « السميع البصير » يوجب مسموعاً ومرئياً ، واسمه « الخالق » يقتضي مخلوقاً ، وكذلك « الرزاق » واسمه « الملك » يقتضي مملكة وتصرفاً وتدبيراً ، وإعطاء ومنعاً ، وإحساناً وعدلاً ، وثواباً وعقاباً ، واسم « البر ، المحسن ، المعطي ، المنان » ونحوها تقتضي آثارها وموجباتها .

إذا عرف هذا ، فمن أسمائه سبحانه « الغفار ، التواب ، العفو » فلا بد لهذه الأسماء من متعلقات ، ولا بد من جناية تغفر ، وتوبة تقبل ، وجرائم يعفى عنها ، ولا بد لاسمه « الحكيم » من متعلق يظهر فيه حكمه ، إذ اقتضاء هذه الأسماء لآثارها كاقتضاء اسم « الخالق ، الرزاق ، المعطي ، المانع » للمخلوق والمرزوق والمعطي والممنوع ، وهذه الأسماء كلها حسنى ، والرب تعالى يحب ذاته وأوصافه وأسماءه ، فهو عفو يحب العفو ، ويحب المغفرة ، ويحب التوبة ويفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يخطر بالبال ، وكان تقدير ما يغفره ويعفو عن فاعله ، ويحلم عنه ، ويتوب عليه ويسامحه: من موجب أسمائه وصفاته ، وحصول ما يحبه ويرضاه من ذلك ، وما يحمده به نفسه ويحمده به أهل سمواته وأهل أرضه: ما هو من موجبات كماله ومقتضى حمده وهو سبحانه الحميد المجيد ، وحمده ، ومجده يقتضيان آثارهما .

ومن آثارهما: مغفرة الزلات، وإقالة العثرات، والعفو عن السيئات ، والمسامحة على الجنايات ، مع كمال القدرة على استيفاء الحق ، والعلم

منه سبحانه بالجناية ومقدار عقوبتها ، فحلمه بعد علمه ، وعفوه بعد قدرته ، ومغفرته عن كمال عزته وحكمته ، كما قال المسيح عليه السلام: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [1] أي : فمغفرتك عن كمال قدرتك وحكمتك ليست كمن يغفر عجزاً ، ويسامح جهلاً بقدر الحق ، بل أنت عليم بحقك ، قادر على استيفائه ، حكيم في الأخذ به، فمن تأمل سريان آثار الأسماء والصفات في العالم ، وفي الأمر ، تبين له أن مصدر قضاء هذه الجنايات من العبيد ، وتقديرها : هو من كمال الأسماء والصفات والأفعال ، وغاياتها أيضاً : مقتضى حمده ومجده ، كما هو مقتضى ربوبيته وإلهيته .

فله في كل ما قضاه وقدره الحكمة البالغة ، والآيات الباهرة ، والتعرفات إلى عباده بأسمائه وصفاته ، واستدعاء محبتهم له ، وذكرهم له ، وشكرهم له ، وتعبدهم له بأسمائه الحسنى ، إذ كل اسم فله تعبد مختص به ، علماً ومعرفة وحالاً ، وأكمل الناس عبودية : المتعبد بجميع الأسماء والصفات التي يطلع عليها البشر ، فلا تحجبه عبودية اسم عن عبودية اسم آخر ، كمن يحجبه التعبد باسمه « القدير » عن التعبد باسمه « الحليم الرحيم » أو يحجبه عبودية اسمه « المعطي » عن عبودية اسمه « المانع » أو عبودية اسمه « الرحيم والعفو والغفور » عن اسمه « المنتقم » أو التعبد بأسماء التودد والبر واللطف والإحسان عن أسماء « العدل والجبروت ، والعظمة ، والكبرياء » ونحو ذلك .

وهذه طريقة الكُمّل من السائرين إلى الله ، وهي طريقة مشتقة من قلب القرآن ، قال الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾[2] والدعاء بها يتناول دعاء المسألة ، ودعاء الثناء ، ودعاء التعبد ، وهو سبحانه يدعو

---

(١) سورة المائدة : الآية /١١٨/ .
(٢) سورة الأعراف : الآية / ١٨٠/ .

عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته ، ويثنوا عليه بها ، ويأخذوا بحظهم من عبوديتها .

وهو سبحانه يحب موجب أسمائه وصفاته ، فهو «عليم» يحب كل عليم ، «جواد» يحب كل جواد، «وتر» يحب الوتر، «جميل» يحب الجمال ، « عفو » يحب العفو وأهله ، «حيي» يحب الحياء وأهله ، « بر » يحب الأبرار ، «شكور» يحب الشاكرين ، «صبور» يحب الصابرين ، «حليم» يحب أهل الحلم ، فلمحبته سبحانه للتوبة والمغفرة والعفو والصفح : خلق من يغفر له ، ويتوب عليه ويعفو عنه ، وقدر عليه ما يقتضي وقوع المكروه والمبغوض له ، ليترتب عليه المحبوب له المرضي له ، فتوسطه كتوسط الأسباب المكروهة المفضلة إلى المحبوب .

فربما كان مكروه العباد إلى محبوبها سبب ما مثله سبب

والأسباب ـ مع مسبباتها ـ أربعة أنواع : محبوب يفضي إلى محبوب، ومكروه يفضي إلى محبوب ، وهذان النوعان عليهما مدار أقضيته وأقداره سبحانه بالنسبة إلى ما يحبه وما يكرهه .

والثالث : مكروه يفضي إلى مكروه . والرابع : محبوب يفضي إلى مكروه، وهذان النوعان ممتنعان في حقه سبحانه ، إذ الغايات المطلوبة من قضائه وقدره ـ الذي ما خلق ما خلق ، ولا قضى ما قضى إلا لأجل حصولها ـ لا تكون إلا محبوبة للرب مرضية له ، والأسباب الموصلة إليها منقسمة إلى محبوب له ومكروه له .

فالطاعات والتوحيد : أسباب محبوبة له ، موصلة إلى الإحسان ، والثواب المحبوب له أيضاً ، والشرك والمعاصي : أسباب مسخوطة له ، موصلة إلى العدل المحبوب له ، وإن كان الفضل أحب إليه من العدل ،

فاجتماع العدل والفضل أحب إليه من انفراد أحدهما عن الآخر ، لما فيهما من كمال الملك والحمد ، وتنوع الثناء ، وكمال القدرة .

فإن قيل : كان يمكن حصول هذا المحبوب من غير توسط المكروه .

قيل : هذا سؤال باطل ، لأن وجود الملزوم بدون لازمه ممتنع ، والذي يقدّر في الذهن وجوده شيء آخر غير هذا المطلوب المحبوب للرب ، وحكم الذهن عليه بأنه محبوب للرب حكم بلا علم ، بل قد يكون مبغوضاً للرب تعالى لمنافاته حكمته ، فإذا حكم الذهن عليه بأنه محبوب له ، كان نسبة له إلى مالا يليق به ، ويتعالى عنه .

فليعط اللبيب هذا الموضع حقه من التأمل ، فإنه مزلة أقدام ، ومضلة أفهام ، ولو أمسك عن الكلام من لا يعلم لقل الخلاف ، وهذا المشهد أجل من أن يحيط به كتاب ، أو يستوعبه خطاب ، وإنما أشرنا إليه أدنى إشارة تطلع على ما وراءها ، والله الموفق والمعين .

المشهد التاسع : مشهد زيادة الإيمان وتعدد شواهده :

وهذا من ألطف المشاهد ، وأخصها بأهل المعرفة ، ولعل سامعه يبادر إلى إنكاره ، ويقول : كيف يشهد زيادة الإيمان من الذنوب والمعاصي ، ولاسيما ذنوب العبد ومعاصيه ، وهل ذلك إلا منقص للإيمان ، فإنه بإجماع السلف : يزيد بالطاعة ، وينقص بالمعصية .

فاعلم أن هذا حاصل من التفات العارف إلى الذنوب والمعاصي منه ومن غيره وإلى ترتب آثارها عليها ، وترتب هذه الآثار عليها علم من أعلام النبوة ، وبرهان من براهين صدق الرسل ، وصحة ما جاؤوا به ، فإن الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ أمروا العباد بما فيه صلاح ظواهرهم وبواطنهم في معاشهم ومعادهم ، ونهوهم عمّا فيه فساد

ظواهرهم وبواطنهم في المعاش والمعاد ، وأخبروهم عن الله عز وجل : أنه يحب كذا وكذا ، ويثيب عليه بكذا وكذا ، وأنه يبغض كيت وكيت ، ويعاقب عليه بكيت وكيت ، وأنه إذا أطيع بما أمر به : شكر عليه بالإمداد والزيادة والنعم ، في القلوب والأبدان والأموال ، ووجد العبد زيادته وقوته في حاله كلها ، وأنه إذا خولف أمره ونهيه ترتب عليه من النقص والفساد ، والضعف ، والذل ، والمهانة ، والحقارة ، وضيق العيش ، وتنكيد الحياة ما ترتب ، كما قال تعالى :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [1] .

وقال : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [2] .

وقال تعالى : ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ [3] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [4] وفسرت المعيشة الضنك : بعذاب القبر ، والصحيح : أنها في الدنيا ، وفي البرزخ ، فإن من أعرض عن ذكره الذي أنزله [5] . فله من ضيق الصدر ، ونكد العيش ، وكثرة الخوف ، وشدة

---

(١) سورة النحل : الآية /٩٧/ .

(٢) سورة الزمر : الآية /١٠/ .

(٣) سورة هود : الآية /٣/ .

(٤) سورة طه : الآية /١٢٤/ .

(٥) «ذكري» ما يذكر بالله سبحانه . وهو أولاً المشار إليه بقوله : ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ . وبقوله : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ وهذا كثير جداً في القرآن ، فإن الغفلة عن آيات الله وعن =

الحرص والتعب على الدنيا ، والتحسر على فواتها قبل حصولها وبعد حصولها ، والآلام التي في خلال ذلك ـ ما لا يشعر به القلب لسكرته ، وانغماسه في السكر ، فهو لا يصحو ساعة إلا أحس وشعر بهذا الألم ، فبادر إلى إزالته بسكر ثان ، فهو هكذا مدة حياته ، وأي عيشة أضيق من هذه لو كان للقلب شعور؟

فقلوب أهل البدع ، والمعرضين عن القرآن ، وأهل الغفلة عن الله ، وأهل المعاصي : في جحيم قبل الجحيم الأكبر ، وقلوب الأبرار في نعيم قبل النعيم الأكبر ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ (١) .

هذا في دورهم الثلاث ، ليس مختصاً بالدار الآخرة ، وإن كان تمامه وكماله وظهوره : إنما هو في الدار الآخرة ، وفي البرزخ دون ذلك ، كما قال تعالى :

﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ (٢) .

وقال تعالى :

= آثار أسمائه وصفاته في الأنفس والآفاق والانسلاخ منها : هو الذي أركس الإنسان في ظلمات الجاهلية ومكن لولاية الشيطان منه فاتبع وحيه الجاهلي الوثني واتخذ القرآن مهجوراً . فلم يحاول أن يتدبر آياته ، ولا أن يتلوه حق تلاوته لأنه زعم له أنه ليس بحاجة إليه لا في عقيدة ولا عمل ولا خلق ولا حال ، فقد جمع له كل ذلك فيما زخرف له من القول غروراً ، وزاده غروراً ومخادعة باتهامه أن تكرار ألفاظ القرآن للموتى وللتبرك ، واتخاذ المصحف تميمة يخرجه عن المعرضين عن ذكر الله .

(١) سورة الانفطار : الآيتان / ١٣ ـ ١٤/ .

(٢) سورة الطور : الآية / ٤٧/ .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ (١) .

وفي هذه الدار دون ما في البرزخ ، ولكن يمنع من الإحساس به : الاستغراق في سكرة الشهوات ، وطرح ذلك عن القلب ، وعدم التفكر فيه ، والعبد قد يصيبه ألم حسي فيطرحه عن قلبه ، ويقطع التفاته عنه ويجعل إقباله على غيره ، لئلا يشعر به جملة ، فلو نال عنه ذلك الالتفات ، لصاح من شدة الألم ، فما الظن بعذاب القلوب وآلامها؟! وقد جعل الله سبحانه للحسنات والطاعات آثاراً محبوبة لذيذة طيبة ، لذَّتها فوق لذة المعصية بأضعاف مضاعفة ، لا نسبة لها إليها ، وجعل للسيئات والمعاصي آلاماً وآثاراً مكروهة ، وحزازات تربي على لذة تناولها بأضعاف مضاعفة ، قال ابن عباس: « إن للحسنة نوراً في القلب ، وضياء في الوجه ، وقوة في البدن ، وزيادة في الرزق ، ومحبة في قلوب الخلق ، وإن للسيئة سواداً في الوجه ، وظلمة في القلب ووهناً في البدن ، ونقصاً في الرزق ، وبغضة في قلوب الخلق » . وهذا يعرفه صاحب البصيرة ، ويشهده من نفسه ومن غيره .

فما حصل للعبد حال مكروهة قط إلا بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر ، قال الله تعالى :

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ (٢) .

وقال لخيار خلقه وأصحاب نبيه :

(١) سورة النمل : الآيتان / ٧١ - ٧٢/ .
(٢) سورة الشورى : الآية / ٣٠/ .

﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ ﴾ (١).

وقال : ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ ﴾ (٢).

والمراد بالحسنة والسيئة هنا : النعم والمصائب التي تصيب العبد من الله ، ولهذا قال : « ما أصابك » ولم يقل : ما أصبت .

فكل نقص وبلاء وشر في الدنيا والآخرة ، فسببه الذنوب ، ومخالفة أوامر الرب ، فليس في العالم شر قط إلا الذنوب وموجباتها (٣) وآثار الحسنات والسيئات في القلوب والأبدان والأموال : أمر مشهود في العالم ، لا ينكره ذو عقل سليم ، بل يعرفه المؤمن والكافر ، والبر والفاجر .

وشهود العبد هذا في نفسه وفي غيره وتأمله ومطالعته : مما يقوي إيمانه بما جاءت به الرسل ، وبالثواب والعقاب ، فإن هذا عدل مشهود محسوس في هذا العالم ، ومثوبات وعقوبات عاجلة ، دالة على ما هو أعظم منها لمن كانت له بصيرة ، كما قال بعض الناس : إذا صدر مني ذنب ولم أبادره ولم أتداركه بالتوبة : انتظرت أثره السيىء ، فإذا أصابني ـ أو فوقه أو دونه ـ كما حسبت ، يكون هجّيراي : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، ويكون ذلك من شواهد الإيمان وأدلته ، فإن الصادق متىٰ أخبرك أنك إذا فعلت كذا وكذا ، فجعلت كلما فعلت شيئاً من ذلك حصل لك ما قال من المكروه ، لم تزدد إلا علماً

---

(١) سورة آل عمران : الآية / ١٦٥/ .

(٢) سورة النساء : الآية / ٧٩/ .

(٣) وأهم ما يولدها : هو التقليد الأعمى والجاهلية الغافلة عن آثار أسماء الربّ وصفاته .

بصدقه وبصيرة فيه ، وليس هذا لكل أحد بل أكثر الناس ترين الذنوب على قلبه ، فلا يشهد شيئاً من ذلك ولا يشعر به ألبتة .

وإنما يكون هذا لقلب فيه نور الإيمان ، وأهوية الذنوب والمعاصي تعصف فيه ، فهو يشاهد هذا وهذا ، ويرى حال مصباح إيمانه مع قوة تلك الأهوية والرياح ، فيرى نفسه كراكب البحر عند هيجان الرياح ، وتقلب السفينة وتكفئها ولاسيما إذا انكسرت به وبقي على لوح تلعب به الرياح ، فهكذا المؤمن يشاهد نفسه عند ارتكاب الذنوب ، إذا أريد به الخير ، وإن أريد به غير ذلك فقلبه في واد آخر .

ومتى انفتح هذا الباب للعبد : انتفع بمطالعة تاريخ العالم ، وأحوال الأمم ، ومجريات الخلق ، بل انتفع بمجريات أهل زمانه وما يشاهده من أحوال الناس، وفهم حينئذ معنى قوله تعالى :

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ (١) .

وقوله :

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (٢) .

فكل ما تراه في الوجود ـ من شر وألم وعقوبة وجدب ، ونقص في نفسك وفي غيرك ـ فهو من قيام الرب تعالى بالقسط ، وهو عدل الله وقسطه ، وإن أجراه على يد ظالم ، فالمقسط له أعدل العادلين . كما قال تعالى لمن أفسد في الأرض :

﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ . . . ﴾ (٣) .

---

(١) سورة الرعد : الآية / ٣٣/ .
(٢) سورة آل عمران : الآية / ١٨/ .
(٣) سورة الإسراء : الآية / ٥/ .

فالذنوب مثل السموم مضرة بالذات ، فإن تداركها من سقي بالأدوية المقاومة لها ، وإلا قهرت القوة الإيمانية ، وكان الهلاك ، كما قال بعض السلف : « المعاصي بريد الكفر ، كما أن الحمى بريد الموت » .

فشهود العبد نقص حاله إذا عصىٰ ربه ، وتغير القلوب عليه ، وجفولها منه، وانسداد الأبواب في وجهه ، وتوعر المسالك عليه ، وهو أنه على أهل بيته وأولاده وزوجته وإخوانه ، وتطلبه ذلك حتى يعلم من أين أتى ، ووقوعه على السبب الموجب لذلك : مما يقوي إيمانه ، فإن أقلع وباشر الأسباب التي تفضي به إلى ضد هذه الحال ، رأى العز بعد الذل ، والغنى بعد الفقر ، والسرور بعد الحزن ، والأمن بعد الخوف والقوة في قلبه بعد ضعفه ووهنه ازداد إيماناً مع إيمانه ، فتقوى شواهد الإيمان في قلبه وبراهينه وأدلته في حال معصيته وطاعته ، فهذا من الذين قال الله فيهم :

﴿ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (١)، وصاحب هذا المشهد متى تبصر فيه ، وأعطاه حقه صار من أطباء القلوب العالمين بدائها ودوائها ، فنفعه الله في نفسه ونفع به من شاء من خلقه، والله أعلم .

المشهد العاشر : مشهد الرحمة :

فإن العبد إذا وقع في الذنب خرج من قلبه تلك الغلظة والقسوة ، والكيفية الغضبية التي كانت عنده لمن صدر منه ذنب ، حتى لو قدر عليه لأهلكه ، وربما دعا الله عليه أن يهلكه ويأخذه ، غضباً منه لله وحرصاً على ألاّ يعصي ، فلا يجد في قلبه رحمة للمذنبين الخاطئين ، ولا يراهم إلا بعين الاحتقار والازدراء ، ولا يذكرهم إلا بلسان الطعن فيهم ، والعيب

---

(١) سورة الزمر : الآية / ٣٥/ .

لهم والذم ، فإذا جرت عليه المقادير وخلي ونفسه استغاث الله والتجأ إليه، وتململ بين يديه تململ السليم ، ودعاه دعاء المضطر ، فتبدلت تلك الغلظة على المذنبين رقة ، وتلك القساوة على الخاطئين رحمة وليناً مع قيامه بحدود الله ، وتبدل دعاؤه عليهم دعاء لهم ، وجعل لهم وظيفة من عمره يسأل الله أن يغفر لهم .

فما أنفعه له من مشهد! وما أعظم جدواه عليه . والله أعلم .

فيورثه ذلك : المشهد الحادي عشر :

وهو مشهد العجز والضعف ، وأنه أعجز شيء عن حفظ نفسه وأضعفه ، وأنه لا قوة له ولا قدرة ولا حول إلا بربه ، فيشهد قلبه كريشة ملقاة بأرض فلاةٍ تقلّبها الرياح يميناً وشمالاً ، ويشهد نفسه كراكب سفينة في البحر تهيج بها الرياح وتتلاعب بها الأمواج ، ترفعها تارة وتخفضها تارة أخرى ، تجري عليها أحكام القدر ، وهو كالآلة طريحاً بين يدي وليه ، مُلقىً ببابه ، واضعاً خده على ثرى أعتابه ، لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، ليس له من نفسه إلا الجهل والظلم وآثارهما ومقتضياتهما ، فالهلاك أدنى إليه من شراك نعله ، كشاة ملقاة بين الذئاب والسباع ، لا يردها عنها إلا الراعي ، فلو تخلى عنها طرفة عين لتقاسموها أعضاء .

وهكذا حال العبد ملقى بين الله وبين أعدائه ، من شياطين الإنس والجن، فإن حماه منهم وكفّهم عنه لم يجدوا إليه سبيلاً ، وإن تخلى عنه ووكله إلى نفسه طرفة عين لم ينقسم عليهم ، بل هو نصيب من ظفر به منهم ، وفي هذا المشهد يعرف نفسه حقاً ، ويعرف ربه ، وهذا أحد التأويلات للكلام المشهور « من عرف نفسه عرف ربه » وليس هذا حديثاً عن رسول الله ﷺ ، إنما هو أثر إسرائيلي بغير هذا اللفظ أيضاً: « ياإنسان اعرف نفسك تعرف ربك » وفيه ثلاث تأويلات :

[**أحدهما**] : إن من عرف نفسه بالضعف عرف ربه بالقوة ، ومن عرف نفسه بالعجز عرف ربه بالقدرة، ومن عرفها بالذل ، عرف ربه بالعز ، ومن عرفها بالجهل عرف ربه بالعلم ، فإن الله سبحانه استأثر بالكمال المطلق ، والحمد والثناء ، والمجد والغنى ، والعبد فقير ناقص محتاج، وكلما ازدادت معرفة العبد بنقصه وعيبه وفقره وذله وضعفه: ازدادت معرفته لربه بأوصاف كماله .

[**التأويل الثاني**] : أن من نظر إلى نفسه ومافيها من الصفات الممدوحة من القوة والإرادة والكلام والمشيئة والحياة ، عرف أن من أعطاه ذلك وخلقه فيه أولى به ، فمعطي الكمال أحق بالكمال ، فكيف يكون العبد حياً متكلماً سميعاً بصيراً مريداً عالماً يفعل باختياره ، ومن خلقه وأوجده لا يكون أولى بذلك منه؟ فهذا من أعظم المحال ، بل من جعل العبد متكلماً أولى أن يكون هو متكلماً، ومن جعله حياً عليماً سميعاً بصيراً فاعلاً قادراً ، أولىٰ أن يكون كذلك .

فالتأويل الأول من باب الضد ، وهو من باب الأولوية .

[**التأويل الثالث**] : أن هذا من باب النفي ، أي: كما أنك لا تعرف نفسك التي هي أقرب الأشياء إليك ، فلا تعرف حقيقتها ، ولا ماهيتها ولا كيفيتها ، فكيف تعرف ربك وكيفية صفاته ؟

والمقصود : أن هذا المشهد يعرّف العبد أنه عاجز ضعيف ، فتزول عنه رعونات الدعاوى ، والإضافات إلى نفسه ، ويعلم أنه ليس له من الأمر شيء ، إن هو إلا محض القهر والعجز والضعف .

فحينئذ يطلع منه على المشهد الثاني عشر :

وهو مشهد الذل والانكسار ، والخضوع ، والافتقار للرب جل جلاله ، فيشهد في كل ذرةٍ من ذراته الباطنة والظاهرة : ضرورة تامة ، وافتقاراً تاماً إلى ربه ووليه ، ومن بيده صلاحه وفلاحه ، وهداه

وسعادته ، وهذه الحال التي تحصل لقلبه لا تنال العبارة حقيقتها ، وإنما تدرك بالحصول فيحصل لقلبه كسرة خاصة لا يشبهها شيء، بحيث يرى نفسه كالإناء المرضوض تحت الأرجل ، الذي لا شيء فيه ، ولا به ولا منه ، ولا فيه منفعة ، ولا يرغب في مثله . وأنه لا يصلح للانتفاع إلا بجبر جديد من صانعه وقيّمه ، فحينئذ يستكثر في هذا المشهد ما من ربه إليه من الخير، ويرى أنه لا يستحق قليلاً منه ولا كثيراً . فأيّ خيرٍ له من الله استكثره على نفسه ، وعلم أن قدره دونه ، وأن رحمة ربه هي التي اقتضت ذكره به ، وسياقته إليه ، واستقلّ ما من نفسه من الطاعات لربه ، ورآها ـ ولو ساوت طاعات الثقلين ـ من أقل ما ينبغي لربه عليه ، واستكثر قليل معاصيه وذنوبه ، فإن الكسرة التي حصلت لقلبه أوجبت له هذا كله .

فما أقرب الجبر من هذا القلب المكسور ! وما أدنى النصر والرحمة والرزق منه ! وما أنفع هذا المشهد له وأجداه عليه ! وذرة من هذا ونفس منه أحب إلى الله من طاعات أمثال الجبال من المدلّين المعجبين بأعمالهم وعلومهم وأحوالهم ، وأحب القلوب إلى الله سبحانه قلب قد تمكنت منه هذه الكسرة ، وملكته هذه الذلة ، فهو ناكس الرأس بين يدي ربه ، لا يرفع رأسه إليه حياء وخجلاً من الله .

قيل لبعض العارفين : أيسجد القلب؟ قال: نعم يسجد سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم اللقاء ، فهذا سجود القلب .

فقلب لا تباشره هذه الكسرة فهو غير ساجد السجود المراد منه ، وإذا سجد القلب لله ـ هذه السجدة العظمى ـ سجدت معه جميع الجوارح، وعنا الوجه حينئذ للحي القيوم ، وخشع الصوت والجوارح كلها ، وذل العبد وخضع واستكان ، ووضع خده على عتبة العبودية ، ناظراً بقلبه إلى ربه ووليه نظر الذليل إلى العزيز الحكيم، فلا يُرى إلا متملقاً لربه خاضعاً ذليلاً، مستعطفاً له ، يسأله عطفه ورحمته ، فهو يترضى به كما يترضى

المحب الكامل المحبة محبوبه المالك به ، الذي لا غنى له عنه ولا بد له منه ، فليس له همّ غير استرضائه واستعطافه ، لأنه لا حياة له ولا فلاح إلا في قربه ورضاه عنه ، ومحبته له ، يقول : كيف أُغْضِب مَنْ حياتي في رضاه ؟ وكيف أعدل عمن سعادتي وفلاحي وفوزي في قربه وحبه وذكره ؟

وصاحب هذا المشهد : يشهد نفسه كرجل كان في كنف أبيه يغذوه بأطيب الطعام والشراب واللباس ، ويربيه أحسن التربية ، ويرقيه على درجات الكمال أتم ترقية ، وهو القيّم بمصالحه كلها ، فبعثه أبوه في حاجة له ، فخرج عليه في طريقه عدو ، فأسره وكتّفه وشدّه وثاقاً ، ثم ذهب به إلى بلاد الأعداء فسامه سوء العذاب ، وعامله بضد ما كان أبوه يعامله به ، فهو يتذكر تربية والده وإحسانه إليه الفينة بعد الفينة ، فتهيج من قلبه لواعج الحسرات كلما رأى حاله ، ويتذكر ما كان عليه وكل ما كان فيه ، فبينا هو في أسر عدوه يسومه سوء العذاب ، ويريد نحره في آخر الأمر ، إذ حانت منه التفاتة إلى نحو ديار أبيه ، فرأى أباه منه قريباً ، فسعى إليه ، وألقى نفسه عليه ، وانطرح بين يديه ، يستغيث : ياأبتاه! يا أبتاه! ياأبتاه ! انظر إلى ولدك وما هو فيه ، ودموعه تستبق على خديه ، قد اعتنقه والتزمه ، وعدوه في طلبه ، حتى وقف على رأسه وهو ملتزم لوالده ولا مؤوي له سواك، ولا معين له سواك، ممسك به ، فهل تقول إن والده يسلمه مع هذه الحال إلى عدوه ، ويخلي بينه وبينه؟ فما الظن بمن هو أرحم بعبده من الوالد بولده ، ومن الوالدة بولدها؟ إذا فرّ عبد إليه ، وهرب من عدوه إليه ، وألقى بنفسه طريحاً ببابه ، يمرّغ خدّه في ثرى أعتابه باكياً بين يديه ، يقول : يارب ، يارب ، ارحم من لا راحم له سواك ، ولا ناصر له سواك ، ولا مؤوي له سواك، ولا مغيث له سواك، مسكينك وفقيرك ، وسائلك ومؤملك ومرجيك ، لا ملجأ له ولا منجىً له منك إلا إليك ، أنت معاذه وبك ملاذه .

يــامــن ألــوذ بــه فيمــا أؤملــه ومــن أعــوذ بــه ممــا أحــاذره
لا يجبر الناس عظماً أنت كاسره ولا يهيضون عظماً أنت جابره[1]

فإذا استبصر في هذا المشهد ، وتمكن من قلبه ، وباشره وذاق طعمه وحلاوته ترقّى منه إلى :

المشهد الثالث عشر :

وهو الغاية التي شمّر إليها السالكون ، وأمّها القاصدون ، ولحظ إليها العاملون .

وهو مشهد العبودية والمحبة ، والشوق إلى لقائه ، والابتهاج به ، والفرح والسرور به ، فتقرّ عينه ، ويسكن إليه قلبه ، وتطمئن إليه جوارحه ويستولي ذكره على لسان محبه وقلبه فتصير خطرات المحبة مكان خطرات المعصية وإرادات التقرب إليه وإلى مرضاته مكان إرادة معاصيه ومساخطه ، وحركات اللسان والجوارح بالطاعات مكان حركاتها بالمعاصي ، قد امتلأ قلبه من محبته ولهج لسانه بذكره وانقادت الجوارح لطاعته ، فإن هذه الكسرة الخاصة لها تأثير عجيب في المحبة لا يعبر عنه .

ويحكى عن بعض العارفين ، أنه قال : دخلت على الله من أبواب الطاعات كلها ، فما دخلت من باب إلا رأيت عليه زحام ، فلم أتمكن من الدخول حتى جئت باب الذل والافتقار ، فإذا هو أقرب باب إليه وأوسعه ، ولا مزاحم فيه ولا معوق ، فما هو إلا أن وضعت قدمي في عتبته ، فإذا هو ـ سبحانه ـ قد أخذ بيدي وأدخلني عليه . وكان شيخ

---

(١) هاض : كسر .
قال الفيروز أبادي في القاموس المحيط : هاض العظم يهيضه : كسره بعد الجبور ، وهاض الطائر : انكسر .

الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه يقول : من أراد السعادة الأبدية ، فليلزم عتبة العبودية .

وقال بعض العارفين : لا طريق أقرب إلى الله من العبودية ، ولا حجاب أغلظ من الدعوى ، ولا ينفع مع الإعجاب والكبر عمل واجتهاد ولا يضر مع الذل والافتقار بطالة « يعني بعد فعل الفرائض » [1] .

والقصد : أن هذه الذلة والكسرة الخاصة تدخله على الله ، وترميه على طريق المحبة ، فيفتح له منها باب لا يفتح له من غير هذه الطريق وإن كانت طرق سائر الأعمال والطاعات تفتح للعبد أبواباً من المحبة ، لكن الذي يفتح منها من طريق الذل والانكسار والافتقار وازدراء النفس ، ورؤيتها بعين الضعف والعجز والعيب والنقص والذم ، بحيث يشاهدها ضيعة وعجزاً ، وتفريطاً وذنباً وخطيئة : نوع آخر وفتح آخر ، والمسالك بهذه الطريق غريب في الناس ، وهم في وادٍ وهو في وادٍ، وهي تسمى طريق الطير ، يسبق النائم فيها على فراشه السعاة ، فيصبح وقد قطع الطريق وسبق الركب ، بينا هو يحدثك ، إذا به قد سبق الطرق وفات السعاة ، فالله المستعان ، وهو خير الغافرين .

وهذا الذي حصل له من آثار محبة الله له ، وفرحه بتوبة عبده ، فإنه سبحانه يحب التوابين ، ويفرح بتوبتهم أعظم فرح وأكمله ، فكلما طالع العبد منن ربه سبحانه عليه قبل الذنب ، وفي حال مواقعته ، وبعده ، وبرّه به وحلمه عنه ، وإحسانه إليه : هاجت من قلبه لواعج محبته والشوق إلى

---

(١) وأساس الذل والانكسار والعبودية : هو أداء ما افترض الله على العبد ، وقد بين ذلك الرسول ﷺ في قوله فيما روى البخاري عن ربه عز وجل: « ما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ـ الحديث » ومن زعم أن هناك ذلاً وانكساراً مع إضاعة الفرائض ، وإهمال الحقوق والواجبات فهو أضل من البهائم .

لقائه ، فإن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها ، وأي إحسان أعظم من إحسان من يبارزه العبد بالمعاصي ، وهو يُمِدّه بنعمه ، ويعامله بألطافه، ويسبل عليه ستره ، ويحفظه من خطفات أعدائه المترقبين له أدنى عثرة ينالون منه بها بغيتهم ، ويردهم عنه ، ويحول بينهم وبينه؟ وهو في ذلك كله بعينه ، يراه ويطلع عليه ، فالسماء تستأذن ربها أن تحصبه ، والأرض تستأذنه أن تخسف به ، والبحر يستأذنه أن يُغرقه ، كما في مسند الإمام أحمد عن النبي ﷺ :

« ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه : أن يغرق ابن آدم ، والملائكة تستأذنه : أن تعاجله وتهلكه ، والرب تعالى يقول : دعوا عبدي فأنا أعلم به ، إذ أنشأته من الأرض ، إن كان عبدكم فشأنكم به وإن كان عبدي فمنّي وإليّ عبدي ، وعزتي وجلالي إن أتاني ليلاً قبلته ، وإن أتاني نهاراً قبلته ، وإن تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً ، وإن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً ، وإن مشى إليّ هرولت إليه ، وإن استغفرني غفرت إليه ، وإن استقالني أقلته ، وإن تاب إليّ تبت عليه ، من أعظم مني جوداً وكرماً ، وأنا الجواد الكريم؟ عبيدي يبيتون يبارزونني بالعظائم ، وأنا أكلؤهم في مضاجعهم ، وأحرسهم على فُرُشهم ، من أقبل إليّ تلقيته من بعيد ، ومن ترك لأجلي أعطيته فوق المزيد ، ومن تصرف بحولي وقوتي ألنت له الحديد ، ومن أراد مرادي أردت ما يريد ، أهل ذكري أهل مجالستي ، وأهل شكري أهل زيادتي ، وأهل طاعتي أهل كرامتي ، وأهل معصيتي لا أُقنّطهم من رحمتي ، إن تابوا إلي فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعايب » (١) .

---

(١) لم نجد الحديث بلفظه ، ونص الحديث عند الإمام أحمد : قال رسول الله ﷺ : « ليس من ليلة إلا والبحر يشرف فيها ثلاث مرات على الأرض

ولنقتصر على هذا القدر من ذكر« التوبة » وأحكامها وثمراتها ، فإنه ما أطيل الكلام فيها إلا لفرط الحاجة والضرورة إلى معرفتها ، ومعرفة أحكامها ، وتفاصيلها ومسائلها ، والله الموفق لمراعاة ذلك ، والقيام به عملاً وحالاً ، كما وفق له علماً ومعرفة ، فما خاب من توكل عليه ولاذ به ولجأ إليه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

منزلــة الإنــابــة :

قد علمت أن من نزل في منزل « التوبة » وقام في مقامها نزل في جميع منازل الإسلام ، فإن« التوبة » الكاملة متضمنة لها وهي مندرجة فيها ، ولكن لا بد من إفرادها بالذكر والتفصيل ، تبييناً لحقائقها وخواصها وشروطها .

فإذا استقرت قدمه في منزل « التوبة » نزل بعده منزل « الإنابة » وقد أمر الله تعالى بها في كتابه وأثنى على خليله بها فقال :

﴿ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ (1) .

وقال : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾ (2) .

وأخبر أن آياته إنما يتبصر بها ويتذكر أهل الإنابة فقال :

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾(3) .

= يستأذن الله في أن ينفضح عليهم ، فيكفه الله عز وجل » (المسند : ١/ ٤٣) .

(١) سورة الزمر : الآية / ٥٤/ .

(٢) سورة هود : الآية / ٧٥/ .

(٣) سورة ق : الآيتان / ٦ ـ ٨/ .

وقال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾(٢) الآية .

فـ﴿ ۞ مُنِيبِينَ ﴾ منصوب على الحال من الضمير المستكن في قوله : ﴿ فأقم وجهك ﴾ لأن هذا الخطاب له ولأمته ، أي : أقم وجهك أنت وأمتك منيبين إليه ، نظيره قوله :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾(٣) ويجوز أن يكون حالاً من المفعول في قوله : ﴿ فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ ﴾ أي : فطرهم منيبين إليه ، فلو خُلّوا وفطرهم لما عدلت عن الإنابة إليه ، ولكنها تحوّل وتتغير عما فطرت عليه ، كما قال ﷺ : « مامن مولود إلا يولد على الفطرة » وفي رواية :

« على الملة ـ حتى ـ يعرب عنه لسانه »(٤) .

وقال عن نبيه داود : ﴿ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾(٥) .

وأخبر أن ثوابه وجنته لأهل الخشية والإنابة فقال : ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ

---

(١) سورة غافر : الآية /١٣/ .

(٢) سورة الروم : الآية /٣١/ .

(٣) سورة الطلاق : الآية /١/ .

(٤) رواه البخاري في الجنائز (٣/١٧٦) باب إذا أسلم الصبي ، ومسلم (٢٦٥٨) في القدر ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ، وأبو داود (٤٧١٤) في السنة ، باب ذراري المشركين ، وأحمد في المسند (٢/٢٣٣) و(٢٧٥) و(٢٨٢) و(٣٩٣) و(٣/٣٥٣) ، والترمذي (٢١٣٩) في القدر باب كل مولود يولد على الملة ، والبغوي في شرح السنة (٨٥) في الإيمان ، باب أطفال المشركين .

(٥) سورة ص : الآية /٢٤/ .

لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ﴾ (١) .

وأخبر سبحانه أن البشرى منه إنما هي لأهل الإنابة فقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ﴾ (٢) .

أنواع الإنابة :

و« الإنابة إنابتان : إنابة لربوبيته ، وهي إنابة المخلوقات كلها ، يشترك فيها المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ (٣) .

فهذا عام في حق كل داع أصابه ضر ، كما هو الواقع ، وهذه « الإنابة » لا تستلزم الإسلام ، بل تجامع الشرك والكفر كما قال تعالى في حق هؤلاء : ﴿ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ﴾ (٤) .

فهذا حالهم بعد إنابتهم .

و« الإنابة » الثانية إنابة أوليائه ، وهي إنابة لإلهيته ، إنابة عبودية ومحبة، وهي تتضمن أربعة أمور : محبته ، والخضوع له ، والإقبال عليه ، والإعراض عما سواه، فلا يستحق اسم « المنيب » إلا من اجتمعت فيه هذه الأربع ، وتفسير السلف لهذه اللفظة يدور على ذلك . وفي اللفظة معنى الإسراع والرجوع والتقدم . و« المنيب » إلى الله : المسرع إلى مرضاته الراجع إليه كل وقت المتقدم إلى محابه.

---

(١) سورة ق : الآيات /٣١ ـ ٣٤/ .
(٢) سورة الزمر : الآية /١٧/ .
(٣) سورة الروم : الآية /٣٣/ .
(٤) سورة الروم : الآيات /٣١ ـ ٣٤/ .

قال صاحب المنازل :

« الإنابة في اللغة الرجوع وهي ها هنا الرجوع إلى الحق، وهي ثلاثة أشياءً الرجوع إلى الحق إصلاحاً ، كما رجع إليه اعتذاراً، والرجوع إليه وفاء كما رجع إليه عهداً، والرجوع إليه حالاً كما رجعت إليه إجابة » .

ولما كان التائب قد رجع إلى الله بالاعتذار والإقلاع عن معصيته ، كان من تتمة ذلك رجوعه إليه بالاجتهاد والنصح في طاعته كما قال: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾ (١) .

وقال : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ ﴾ (٢) .

فلا تنفع توبة وبطالة، فلا بد من توبة وعمل صالحٍ: تركٍ لما يكره ، وفعل لما يحب ، تخلٍّ عن معصيته ، وتحلٍّ بطاعته .

وكذلك الرجوع إليه بالوفاء بعهده ، كما رجعت إليه عند أخذ العهد عليك، فرجعت إليه بالدخول تحت عهده أولاً، فعليك بالرجوع بالوفاء بما عاهدته عليه ثانياً، والدين كله : عهد ووفاء، فإن الله أخذ عهده على جميع المكلفين بطاعته ، فأخذ عهده على أنبيائه ورسله على لسان ملائكته ، أو منه إلى الرسول بلا واسطة العلماء، فأخذ عهده على هؤلاء بالتعليم ، وعلى هؤلاء بالتعلم ، ومدح المؤمنين بعهده ، وأخبر بما لهم عنده من الأجر فقال :

﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٣) .

وقال : ﴿ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ (٤) .

---

(١) سورة الفرقان : الآية / ٧٠/ .

(٢) سورة البقرة : الآية / ١٦٠/ .

(٣) سورة الفتح : الآية / ١٠/ .

(٤) سورة الإسراء : الآية / ٣٤/ .

وقال : ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ﴾ [(١)] .

وقال : ﴿ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ ﴾ [(٢)] .

وهذا يتناول عهودهم مع الله بالوفاء له بالإخلاص والإيمان والطاعة وعهودهم مع الخالق، وأخبر النبي ﷺ : أن من علامات النفاق « الغدر بعد العهد » [(٣)] .

فما أناب إلى الله من خان عهده وغدر به ، كما أنه لم ينب إليه من لم يدخل تحت عهده ، فالإنابة لا تتحقق إلا بالتزام العهد والوفاء به .

وقوله: « والرجوع إليه حالاً كما رجعت إليه إجابة » أي: هو سبحانه قد دعاك فأجبته بلبيك وسعديك قولاً، فلا بد من الإجابة حالاً تصدق به المقال فإن الأحوال تصدق الأقوال أو تكذبها وكل قول فلصدقه وكذبه شاهد من حال قائله، فكما رجعت إلى الله إجابة بالمقال ، فارجع إليه إجابة بالحال ، قال الحسن : ابن آدم ، لك قول وعمل ، وعملك أولى بك من قولك ولك سريرة وعلانية، وسريرتك أملك بك من علانيتك .

الرجوع إلى الله :

قال : « إنما يستقيم الرجوع إليه إصلاحاً بثلاثة أشياء : بالخروج من

---

(١) سورة النحل : الآية /٩١/ .

(٢) سورة البقرة : الآية /١٧٧/ .

(٣) تمام الحديث : قال رسول الله ﷺ : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا ائتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » . رواه البخاري (١/ ٨٤) في الإيمان ، ومسلم (٥٨) في الإيمان ، وأبو داود (٤٦٨٨) في السنة ، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه ، والترمذي (٢٦٣٤) في الإيمان ، باب ما جاء في علامة المنافق .